٩٩/٥/٤/٧

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون   كانون الثاني (يناير) - آذار (مارس) ١٩٨٣   السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر	د. إحسان عباس	د. شكري فيصل	
الشيخ عبد الله العلايلي	د. عمر التومي الشيباني	د. عبد السلام المسدي	رئيس التحرير
د. مصطفى التير	د. معن زيادة	د. إبراهيم رفيدة	رضوان السيد

المدير المسؤول   عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب المجلة: ١٤/٥٥٦٤   ص.ب المعهد: ١٤/٥٣

الثمن: ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

لم الاهتمام بالاستشراق؟

د. شكري النجار

مفهوم الاستشراق

يؤخذ الاستشراق عادة، بعدة معان متداخلة ومتكاملة. ولعلّ أهم معنى للكلمة، هو المعنى الأكاديمي حيث تطلق كلمة مستشرق ـ بشيء من التجاوز ـ على كل من يتخصّص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو بعيد. وحتى عهد قريب جداً، كانت هذه الكلمة تطلق على دارسيّ الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية أو المتخصص في تاريخ إحدى الدول الشرقية، أو حتى المتخصص في سوسيولوجية أو انتروبولوجية الشعوب الشرقية، أو ما إلى ذلك. ويبدو أن هذا الميل القديم لإطلاق مصطلح استشراق على كل هذه الدراسات المتعددة المتباعدة المتباينة، بدأ الآن في الانحسار، إذ لا نكاد نجد عالم الأنتروبولوجيا، مثلاً، الذي يدرس إحدى الثقافات الشرقية، يسمّي نفسه مستشرقاً على غرار ما كان يحدث في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن. فكلمة إستشراق، وكلمة مستشرق آخذتان في الاختفاء في الأوساط العلميّة والأكاديمية، لتحلّ محلهما كلمات أخرى أكثر دلالة على التخصُّص العلمي.

وثمّة مفهوم آخر للاستشراق أكثر عمومية: هو اعتبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يرتكز على التمييز الانطولوجي والابستمولوجي، بين «الشرق» و«الغرب». ولقد أدَّى هذا المفهوم بعدد كبير من الكتَّاب والفلاسفة والسياسيين، وحتى الاقتصاديين، ورجال الحكم والإدارة أيام الاستعمار، الى ان يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب، كنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية ودراستهم المختلفة عن النمو الاقتصادي للشرق، وأفكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية ومصائرها، وما الى ذلك. هذا المفهوم الواسع الفضفاض لكلمة استشراق، يسمح لنا بأن نُدخل في عداد المهتمين بالشرق كل فئات الكتَّاب والمفكرين والأدباء وغيرهم، ممن عالجوا حياة الشرق في مؤلَّفاتهم، بصرف النظر عن ماسية هذه المؤلفات. وبذلك، يمكن أن ندرج أسماء، مثل: «ڤيكتور هيجو» و«دانتي» و«ماركس» وغيرهم. إلاَّ أن هذا المفهوم

يصطدم بعقبات كثيرة هامة، تتعلّق في الأغلب بالمنهج العلمي. ومع أهمية بعض هذه الكتابات، من حيث أنها تلقي أضواء كثيرة على مفهوم الغربيين عن الشرق والشرقيين، فإنها في غالبيتها تخرج عن النطاق العلمي الدقيق، ويدخل معظمها في باب التخيُّل الذي لا يخلو من تحامل وجهل، كما هو الحال في كتابة «دانتي» عن الاسلام ونبي الاسلام.

وليس من شك في أن الانتقال من مفهوم لآخر؛ أي بين المفهوم الأكاديمي والمفهوم التخيُّلي للاستشراق، كان قائماً طيلة الوقت؛ بحيث كان يحدث كثير من اللّبس والخلط بينهما. ولكنه ازداد بمرور الزمن، فأصبح أكثر تنظيماً في أواخر القرن الثامن عشر، وأدّى ذلك بالضرورة إلى مفهوم ثالث للاستشراق، يتميّز عن المفهومين الآخرين بوضوح النواحي التاريخية والمادية فيه. وقد تمثّل هذا المفهوم، بوجه خاص، في المحاولات الكثيرة التي قام بها المتخصصون في الدراسات الشرقية، لإقامة نظريات منهجيّة متماسكة ومنطقيّة، تعبِّر عن وجهات نظر محدَّدة، وتستند إلى معلومات دقيقة ويقينيّة بقدر الإمكان. ثم تدريس هذه النظريات ومحاولة نشرها على نطاق واسع، بحيث أصبح الاستشراق في آخر الأمر أسلوباً غربياً لفهم الشرق والسيطرة عليه، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكُّم فيه. وباختصار، أصبح هذا المفهوم يهدف إخضاع الشرق للغرب، وأداة ووسيلة للتعبير عن التناقض والتباين بين الشرق والغرب. وهذه الفكرة استخدمها في الأصل «ميشال فوكو»، وما لبثت أن وجدت لها صدىً واسعاً. والواقع، أنه بدون هذه الفكرة، لن نستطيع فهم الطريقة التي أمكن للثقافة الأوروبية أن تدرس بها الشرق سياسياً واجتماعياً وايديولوجياً وعلمياً، بل وخيالياً كذلك، إن أمكن استخدام هذه الكلمة هنا، أثناء فترة ما بعد عصر التنوير. إذ منذ ذلك الحين، أصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة، ويفرض موضوعات معيَّنة تدرس بطريقة معيَّنة بالذات. ولا يعني ذلك، أن الاستشراق، كموضوع للتخصُّص، كان يحدِّد على المتخصصين ما يمكن أن يُقال وما لا يقال عن الشرق، بل يعني أنه أصبح مجموعة الاهتمامات التي كان يجب أن يأخذها الباحث والمختصّ في اعتباره، حين يتعرَّض لدراسة موضوع يتعلَّق بالشرق.

وضمن هذا الإطار، كان هناك دائماً اختلافات واسعة بين اهتمامات الفرنسيين والبريطانيين من ناحية، واهتمامات الأميركيين من الناحية الأخرى، فيما يتعلق بدراسة الشرق ومجالات هذه الدراسة. لقد كانت فكرة الاستشراق، في الأصل ـ وحتى الحرب العالمية الثانية ـ «مشروعاً» ثقافياً بريطانياً وفرنسياً إلى حدٍّ كبير. وكان هذا المشروع من السعة والتنوُّع، بحيث كان يمتد ليشمل كل الشرق حتى الهند، ويغطّي موضوعات متباينة، تتراوح بين البحوث العلمية والفرق والمذاهب الدينيّة، وتجارة التوابل، والجيوش الاستعمارية، والحكومات التي أمكن تطويعها، وقائمة طويلة من الموضوعات الأخرى المختلفة التي تكشف عن تفاوت وتنوع الاهتمامات،

ومدى هذا التفاوت والتنوُّع. ولقد ظلَّ هذا الاهتمام قاصراً على بريطانيا وفرنسا، إلى أن تمكَّنت أميركا بعد الحرب العالمية الثانية من السيطرة على الشرق، وأصبحت تلعب، بالنسبة له، الدور الذي كانت تلعبه الدولتان من قبل.

وعلى أية حال، فإن هذا الاتصال بالشرق، من قبل الغربيين كان خصباً وكانت حصيلته هائلة. وهذه الحصيلة، هي التي تؤلف الآن المادة العلميّة لما نسمّيه اليوم: بالاستشراق.

النقاط الرئيسية في منهج المستشرقين

لا بدَّ من التذكير أولاً بالمرجع الأساسيّ لفكر المستشرقين، وهو دائرة المعارف الاسلامية التي يحررها عدد من كبار العلماء، وتصدر تحت رعاية عدة مجامع علمية غربية. وتحوي مقالاتها خلاصة ما توصَّل إليه الدارسون الغربيّون من نتائج في مختلف الموضوعات الاسلامية. فهي مستودع علمهم وخزانة معارفهم. صدرت الطبعة الأولى في أربعة مجلدات وملحق، باللغات الانكليزية والفرنسيّة والألمانية بين سنتي (١٩١٣ و١٩٣٤). ومنهج المستشرقين في دراسة الاسلام هو منهج الأوروبيين في دراسة التاريخ، مع بعض الإضافات التي اقتضتها طبيعة الدراسات الاسلامية. وبديهي القول، إن هذا المنهج، كمنهج الدراسات التاريخية الأوروبية عموماً، لم يولد كاملاً، وإنما نما وتطور، وأُحكمت آسسه، واستقام أسلوبه بالممارسة والتمحيص الدائم، وخاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر. وما زال هذا المنهج، ينقد ويمحَّص ويطوَّر على أيدي المستغلين بالاستشراق.

لقد كتب عن تطور منهج الأوروبيين في الدراسات الاستشراقية، وخصوصاً الدراسات الاسلامية عددٌ من المستشرقين، منهم: «جيب» في كتابه «المحمّديّة»، و«هولت» في مقدمة تاريخ الاسلام لكمبردج. وعرض المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون، في الفصل الأول من الطبعة الثانية من تراث الاسلام، مواقف الغربيين من العرب والمسلمين منذ زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية حتى الوقت الحاضر؛ ودرس نشأة الدراسات الغربية العالمية عن الاسلام والعرب، وتتبَّع تطوُّر مناهجها وغاياتها، وحلَّل العوامل والظروف المؤثرة في كل ذلك. غير أن الخطوط الكبرى لمنهج الاستشراق الفرنسي، تبلور مع انطوان سلفستر دوساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨)، الذي يقول عنه رودنسون، إنه كان عالماً ضليعاً ومدققاً في فقه اللغة. ففرض على العالم الأوروبي الصرامة والدقّة الفكريّة؛ وبقي أسلوبه في العمل، حتى يومنا هذا، الأسلوب نفسه الذي يتبعه عددٌ كبيرٌ من المستشرقين. الأسلوب المبني على رفض الاستنتاجات المتسرِّعة، والشكّ بها.

والصحيح، أن الشكّ الذي كان «دوساسي» وتلاميذه يقابلون به التركيبات والتعميمات البرَّاقة والسهلة، بغض النظر عمّا كان يؤدي إليه أحياناً من عدم انصاف لبعض النظريات السليمة والهامّة؛ كان شرطاً ضرورياً

لدرس المشرقيين أو الانتاج المشرقي على أساس سليم. وقد طبَّق المستشرقون في القرن التاسع عشر، خاصةً، منهج النقد التاريخي هذا، على أغلب الدراسات الاسلامية؛ رغم أن التقاليد الكنسيّة، في ذلك الحين كانت تحول دون تقدُّم النقد. ولكن النقّاد كانوا يزدادون عدداً داخل الكنيسة وخارجها، وبالأخص منذ عهد الاصلاح الديني في مطلع القرن السادس عشر. من هؤلاء النقّاد نذكر: «توماس هوبز»، و«سبينوزا»، و«يوليوس فيلهاوزن»، و«شبرنغر»، و«ثيودور نولدكه»، و«بلاشير»، و«بروكلمان»، و«لامنس»، و«منتغومري واط»، وغيرهم...

لقد كُتب الشيء الكثير عن الشرق. ومن الصعب الإحاطة بكل ما كتب في الموضوع؛ بالأخص، إن معالجة أية نقطة لا بدّ من أن تجرّ الباحث إلى نقاط وموضوعات أخرى متنوّعة ومتشعبة، قد لا تخطر للباحث على بال في بداية الأمر. لهذا، فإن الاختصار في بحث هذا الموضوع، هنا، إنما يستوجبه سعة الموضوع وتشعبه.

وإذا كان صحيحاً، أن الاستشراق لم يتقدَّم، ولم يصبح أحد مجالات المعرفة الانسانية الهامّة، كما ذكرنا، إلاَّ منذ القرن التاسع عشر نتيجة لحركة الترجمة التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر؛ حيث نُقل الكثير من النصوص من اللغات العربية والسنسكريتية والزنديّة وغيرها، للغات الأوروبية؛ ثم ما ترتب على الحملة الفرنسيّة على مصر من زيادة الاهتمام بمصر والشرق، وتوجيه حركة الاستشراق، بالتالي، إلى مجالات كثيرة غير المجال اللغوي، وإرساء فكرة أن العالم الشرقي والاسلامي يمكن أن يكون معملاً للفكر الغربي والبحث العلمي. فإنّ الصحيح، كذلك، أن الاستشراق بالمعنى الأدق للكلمة، كان قد بدأ، قبل ذلك، بوقت طويل جداً، حين صدور قرار مجمع ڤيينا الكنسي عام (١٣١٢)، بإنشاء عدد من (الكراسي) للغة العربية واليونانية والعبريّة والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وآڤينيون وسلامنكا.

ومنذ ذلك الحين، أخذت حركة الاستشراق تتضح وتتسع بالتدريج وبخطى ثابتة، بحيث شمل اهتمام المستشرقين كل تلك المنطقة الجغرافية الواسعة، التي تغطّي نصف العالم تقريباً. وهو ما لا يتوفَّر لأي مجال آخر من مجالات التخصُّص والمعرفة.

ومن الغريب أن نجد أن القاعدة العامة التي سيطرت على تطوّر الاستشراق، كدراسة أكاديمية، كانت هي اتساع مجاله باستمرار واطِّراد؛ وليست قدرته على الاختيار والانتقاء، كما هو الحال بالنسبة لفروع المعرفة الأخرى، التي تميل بمرور الزمن إلى زيادة التخصُّص الدقيق. فبينما تحاول العلوم والدراسات الأخرى، حين يتسع مجالها، إلى أن تفصل عنها الفروع التي تمّت وتطوَّرت واتسعت، بحيث تؤلف علوماً مستقلة، لها كيانها وموضوعها المتمايز، فإن الاستشراق كان يميل إلى أن يستوعب جميع أنواع المعارف والتخصُّصات، ما دامت تعالج موضوعات ذات صلة بتلك المنطقة الجغرافية الواسعة، بصرف النّظر عمَّا يقوم بينها من اختلاف وتباين.

ولقد ظهر هذا الميل إلى التوسع والاستيعاب، منذ عصر النهضة بوجه خاص. مثال ذلك: أن «أربنيوس» و«غيوم بوشتل» كانا متخصصين أساساً في اللغات السامية، ولو أن «بوشتل» كان يفخر بأنه كان يستطيع أن يسافر في المنطقة كلّها، حتى الصين، دون أن يحتاج إلى مترجم... وظلّ المستشرقون حتى منتصف القرن الثامن عشر يركّزون معظم اهتمامهم على دراسة اللغات السامية والكتب المقدسة والدراسات الاسلامية؛ ثم بدأوا يوسعون من اهتماماتهم ويمدّونها، بحيث شملت الدراسات الصينيّة والأديان الهندية، وما شابه ذلك. وما إن جاء منتصف القرن التاسع عشر، حتى كانت المادة العلمية والمعلومات والتخصُّصات التي تدخل في مجال الاستشراق، تؤلف كنزاً هائلاً من المعرفة التي تفوق كل تصوُّر.

ويمكن أن نستشهد على هذا النهج نحو الاتساع والاستيعاب بدليلين هامين:

الأول، هو الدراسة الموسوعية للاستشراق بين عامي (١٧٦٥ و١٨٥٠)، والتي قام بها «ريموند شواب» في كتابه: **النهضة الشرقية**، والذي بَيَّن فيه أنه بالإضافة إلى القدر الهائل من الدراسة والبحوث التي قام بها المستشرقون خلال هذه الفترة، بحيث ظهرت بعض الملامح الشرقية في تفكير وكتابات جميع المتخصصين والهواة والمتحمسين لكل ما هو شرقي، وبالأخصّ للعناصر الباطنيّة في تلك الثقافات. ويشبّه «شواب» هذا التحمُّس، أو تلك الحمى بالهوس بالدراسات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية، الذي ساد خلال ازدهار عصر النهضة في أوروبا. وقد عبَّر «فيكتور هيغو» عام (١٨٢٩) عن ذلك، بقوله: إنه في عصر لويس الرابع عشر، كان الناس يتخصَّصون في الدراسات الهيلينية، فأصبحوا الآن مستشرقين. وعلى أية حال، فإن هؤلاء المستشرقين كانوا ينقسمون بدورهم إلى فئتين كبيرتين أيضاً، الأولى: فئة العلماء المتخصّصين في الدراسات الاسلامية أو الصينيَّة أو الأندو-أوروبية، أو ما إلى ذلك. والثانية: هي فئة الكتَّاب والفلاسفة والشعراء والفنانين المتحمسين للشرق، أو الذين استخدموا إبداعهم الفنّي في تناول بعض نواحي الحياة الشرقية، كما هو حال ڤيكتور هيغو نفسه في«الأورينتال»، أو «جوته» في ديوانه المشهور، وإن كانت هناك فئة ثالثة تجمع بين الاتجاهين، يدخل ضمن إطارها مستشرقون، أمثال: «ريتشارد بيرتون» و«أدوار وليام لين» و«فريدريك شليجل».

والدليل الثاني على مدى اتساع الاستشراق منذ مجمع ڤيينا، يتمثّل في (وقائع) القرن التاسع عشر عن الدراسات الاستشراقية ذاتها. وربما كانت الوقائع التي تركها لنا «جول موهل» بعنوان: «سبعة وعشرون عاماً من تاريخ الدراسات الشرقية»؛ والتي تقع في مجلّدين كبيرين، يضمان كل ما له أهمية في ميدان الاستشراق بين عامي (١٨٤٠ و١٨٦٧)، هو من أهم هذه التسجيلات التاريخية وإن لم تكن الوحيدة في هذا المجال.

أهميّة هذه (الوقائع)، أنها تكشف لنا مدى اختلاف المستشرقين فيما بينهم في تحديد مفهوم الشرق، وما يمكن إدراجه تحت هذه الدراسات الشرقية، ولم يكن هذا الاختلاف قاصراً على البعد الجغرافي، وإنما امتد إلى

البعد التاريخي. بحيث دخل في هذه الدراسات كثير من القصص والخرافات التي كانت شائعة في الشرق ذاته. فحين حاول «بارتيليمي دير بيلو» مثلاً كتابة موسوعته المعروفة باسم: «المكتبة الشرقية» عام (١٦٩٧)، أحاط فيها بالكثير الكثير من الكتابات العربية والتركيّة والفارسيّة، التي تناولت على السواء: التاريخ واللاهوت والجغرافيا والعلوم والفنون في الشرق، في صورها الحقيقية والمتخيّلة والجغرافية، على ما يقول أدوارد سعيد. وهكذا جاءت «المكتبة» تاريخاً للعالم والخلق والطوفان وتدمير بابل، وما إليها... مع فارقٍ واحد هام يميّزها عن سائر الكتب التي عالجت مثل هذه المواضيع المتشعّبة، هو اعتمادها فقط على مصادر شرقيّة بحتة، يضاف إلى ذلك، اعطاؤه العالم الاسلامي جانباً كبيراً من اهتمامه، فاستعرض ما كتب عن هذا العالم الواسع ـ الذي يمتد من أقصى الشرق إلى جبل طارق. ولكن كتابته لم تكن تخلو من التحامل على الاسلام ونبيّه، لما كان يعتقد بأنه ألحق الضرر والأذى بالمسيحية، فخرج بذلك عن الموضوعية المفترضة بهكذا أبحاث. ورغم ذلك، تعتبر «المكتبة الشرقية» أضخم عمل علمي ظهر في عالم الاستشراق، حتى ذلك الحين، من حيث الشمول والإحاطة. فضلاً عن أن «دير بيلو» قد كتب هذه المكتبة، بأسلوب يعطي القارىء فكرة واضحة عن الجهود الفائقة التي تبذل في مجال الاستشراق، وأن هذه الجهود ليست جهوداً ضائعة.

لقد حاول الكتّاب المتأخرون أن يتخلّصوا من الخيالات والأوهام التي كانت تسيطر على الكتّاب الأوائل، حين يكتبون عن الشرق. وأن يكونوا أكثر موضوعية وإيجابية؛ كما لم يعودوا يختلقون أحداثاً لا وجود لها في الواقع، على ما كان يفعل «فلوبير» مثلاً، في وصفه لسلوك النساء في مصر وللحياة الجنسيّة الإباحيَّة، التي زعم أن المصريين يحيونها، بحيث كان الرجل يجامع المرأة التي تثير إعجابه في الشارع وأمام الناس، وهم يشاهدون ويضحكون. وكانت النساء، في زعمه، يتصلن جنسياً بالدراويش للحصول على البركة بحيث مات أحد هؤلاء الدراويش من الإنهاك. ولكن هذا لا يعني، أن هؤلاء الكتاب المتأخرين قد وصلوا إلى الموضوعية العلمية كما يزعمون. فوراؤهم تراث طويل من الكتابات المغرضة والمتحاملة والرومانتيكية. فضلاً عن دفاعهم عن مصالح الدول التي كانوا ينتمون إليها، والتي كانت تستعمر الشرق. وبعد أن نالت هذه الدول الشرقية استقلالها والمحسر الاستعمار الأوروبي، ظهرت قوى إستعمارية حديثة تتمثّل في القوى العظمى. وأصبح الاستشراق يبحث له عن دور يمكن أن يلعبه في دول العالم الثالث المستقلة، والتي تقف من الغرب عموماً موقف التحدي. ولم يعد أمام المستشرقين إلاَّ أن يسلكوا أحد طريقين اثنين: إمَّا أن يستمرّوا في بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل، كما لو لم يكن شيء قد حدث؛ أو أن يعدِّلوا أساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الأوضاع الجديدة. وكلا الموقفين صعب، بالأخصّ وأن الكثيرين من المستشرقين لا يكادون يعترفون بأن الشرق قد تغيّر أو يمكن أن يتغيّر. ويبقى بعد ذلك كلّه طريق ثالث: وهو أن يسقط علماء الغرب الشرق من اعتبارهم، ويطوى سجل

الاستشراق للأبد . لكن قلة من العلماء ترى في هذا الطريق الحلّ الوحيد . . .

مشكلة الاستشراق

كان الشرق يعتبر ـ باستثناء الاسلام ـ مجرّد امتداد للغرب وتابعاً له ومسرحاً لسيطرته ؛ وظل هذا الفهم قائماً حتى القرن التاسع عشر. هذا القول ينطبق على التجربة البريطانية في الهند، والتجربة البرتغالية في جزر الهند الشرقية والصين واليابان، والتجربة الفرنسية، والتجربة الإيطالية في مناطق كثيرة في الشرق، وإن كان هذا لم يمنع من قيام اضطرابات ضد هذه السلطة او التسلط في تلك المناطق من حين لآخر، مثلما حدث عام (١٦٣٨)، حين قامت جماعة من المسيحيين اليابانيين بطرد البرتغاليين من المنطقة. ولكن فيما عدا ذلك، كان الشرق الاسلامي والعربي هو المنطقة الوحيدة التي كانت تمثّل تحدياً سافراً لأوروبا، سواء في المجالات السياسية أو الثقافية ؛ بل وايضاً في فترة من الفترات في المجال الاقتصادي. ولذا كان الاستشراق يتميَّز، خلال مرحلة طويلة من حياته، بهذا الموقف المعادي للاسلام والمناوىء للثقافة الاسلامية والعربية.

لقد كان شعور أوروبا بالتحدي الاسلامي، واستطراداً العربي، قوياً ومثيراً للرهبة والخوف. فالبلاد الاسلامية قريبة جداً لأوروبا من الناحية الجغرافية. والاسلام كان يستمد كثيراً من معالمه الثقافية من التقاليد اليهودية والهيلينية، فضلاً عن المسيحية، التي طوّعها بشكل يدعو إلى الإعجاب. وفضلاً عمَّا حققه من نجاح في المجال العسكري أو الحربي. فقد فتح مناطق كثيرة، كانت تعتبر معاقل حصينة للمسيحية، بل إن أرض التوراة والكتاب المقدَّس ذاتها، أصبحت من أهم مراكز الاسلام. وقد ظلّ الاسلام، سواء في صورته العربية أم العثمانية أم الشمال أفريقية أم الاسبانية، يهدِّد أوروبا المسيحيّة حتى عام (١٥٧١)؛ وقد أفلح خلال ذلك أن يزيح سلطان روما نفسها ويزلزله، وهو أمر لا يمكن لأيِّ أوروبي في الماضي أو الحاضر أن ينساه أو يتناساه. ولذا، فليس من المستغرب ألاَّ نجد أيّ عمل علمي كبير في تاريخ الاستشراق بعد مكتبة «ديربيلو»، وكتاب «سيمون أوكلي» عن تاريخ السراسنة، الذي بيَّن فيه كثيراً من الأمور التي يجهلها الأوروبيون عن الاسلام وحضارته. وقد تكلم في ذلك بصراحة وعمق أثارا كثيراً من الألم في نفوسهم.

إلاَّ أن مشكلة الاستشراق لم تظهر بجدّيتها إلاَّ عند البدء بالاهتمام بالدراسات الشرقية التي أخذت شكل المشروعات البحثية بدقة، بعد الحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨). وإن كان سبق هذه الحملة مشروعان هامان كانا يهدفان إلى غزو الشرق بالدرجة الأولى.

قام بالمشروع الأول «أنكتيل ديبرون» عام (١٧٣١ ـ ١٨٠٥) وهو مفكّر نظري غريب الأطوار، استطاع بشكل من الأشكال أن يوفق بين الكاثوليكية والجانزية والبرهمانية ؛ وقام بكثير من الرحلات ليبرهن على

وجود « شعب الله المختار » بين الجماعات المختلفة عن طريق تتبع أصول اليهود. ولكنه إلى جانب ذلك درس نصوص « الآفستا »، وقام بترجمتها عام (١٧٥٩)، ثم ترجم « اليوبانيشاد » عام (١٨٧٦). وبذلك استطاع على ما يقول « شواب »: حفر قناة توصل بين العبقرية الانسانية في نصفيْ الكرة الأرضية.

ثم جاءت المحاولة الثانية على يدي « وليام جونز »، الذي درس اللغات العربية والعبرية والفارسية؛ وغادر انجلترا إلى الهند عام (١٧٨٣)، بهدف: « ترويض الشرق لكي يحوله إلى مقاطعة أوروبية » (من كتابه إلى لورد التروب عام ١٧٨٧ - وليام جونز: رحلتي إلى الهند، ترجمة الدكتور أحمد أبو المنى - دار المعارف بمصر ١٩٥٣).

ولكن الملاحظ بوجه عام، أن هذه المشروعات الدراسية، قبل حملة نابليون، لم يكن يخطط لها تخطيطاً كافياً ودقيقاً، بشكل يضمن لها النجاح. كما أن المستشرقين أنفسهم لم يكونوا يعرفون مقدماً ماذا كانوا يريدون، وإنما كانوا يكتشفون مجالات أخرى للبحث، بعد وصولهم بالفعل إلى المواطن أو المواقع التي اختاروها لتكون موضوعاً لدراستهم، وذلك على عكس خطة نابليون التي كانت منذ البداية تهدف إلى احتواء مصر تماماً. فوضعت الخطة على هذا الأساس، وكان لها جانبها العسكري وجانبها العلمي والثقافي أيضاً؛ وكانت مصر تعتبر الحلقة الأولى ضمن سلسلة طويلة لاحتواء الشرق، فتمخَّضت الحملة من ناحية الاستشراق عن إنشاء المعهد المصري، بكل ما فيه من علماء ومفكرين في مختلف فروع التخصُّص؛ وهم الذين درسوا مصر من مختلف الجوانب وألَّفوا كتاب « وصف مصر » الشهير الذي يقع في ثلاثة وعشرين جزءًا ضخماً يهدف، على حدّ ما يذكر ادوارد سعيد، إلى صنع مصر عن طريق إحياء تراثها القديم، ونقلها هي ذاتها من حاضرها إلى حاضر أوروبا.

وكثيرون لا يعرفون أن نابليون تأثر في وضع خطته بكتاب « الكونت دوڤولني »: رحلة في مصر وسورية، الذي ظهر في مجلّدين عام (١٧٨٧)، وقد تعرّض ڤولني في الجزء الثاني للاسلام. ولكن كتاباته عن الإسلام من حيث هو دين، ومن حيث هو نسق من النظم السياسية، كانت تتسم بالتحامل، فأدَّى به هذا في نهاية الأمر إلى اعتبار الشرق الأدنى ليس أكثر من مكان يمكن لفرنسا أن تحقق فيه مطامعها الاستعمارية.

وإذا تركنا الجانب العسكري من حملة نابليون، فإن النتائج العلميّة التي حققتها كانت رائعة؛ وبالأخصّ، فيما يتعلق بتوجيه الدراسات الشرقية وتنمية حركة الاستشراق. فقد ساعدت على أن تكتسب الكتابات بعد ذلك طابعاً أكثر واقعية، وأن تعتمد في الدرجة الأولى على تسجيل الأحداث والظواهر وتحليلها. كما كانت البداية الحقيقية لاهتمام كثير من الكتاب بالشرق، من أمثال: « شاتوبريان » و« لامارتين » و« فلوبير » و« وليام لين » و« ريتشارد بيرتون ». ثم ازداد الدور الذي لعبه المستشرقون في القرنين التاسع عشر والعشرين، نتيجة لازدياد

٣ ـ القرن الثامن عشر:

– VEZIEN: Lettre à M. Rouillé, contenant une relation de l'Egypte, de la Terre Sainte, du Mont Liban.., Lisbonne, 1702.

– MORISON, Anthoine: Relation historique d'un voyage nouvellement fait au Mont-Sinaï et à Jérusalem, Toul, 1704.

– MAUNDRELL, Henry: Voyage d'Alep à Jérusalem en l'Année 1697, Utrecht, 1705. (Oxford, 1703).

– VILLOTTE, Jacques: Voyage d'un missionnaire de la Compagnie de Jésus en Turquie.., Paris, 1714.

– TOURNEFORT, Pitton de: Relation d'un voyage au Levant, 2 vol. Paris, 1717.

– LUCAS, Paul: Troisième voyage du sieur Paul Lucas.. dans la Turquie, l'Asie, la Sourie, la Palestine, la haute et basse Egypte, 3 vol., Rouen, 1719.

– LA ROQUE, Jean de: Voyage de Syrie et du Mont-Liban, 2 vol. Amsterdam, 1723.

– SAINT-MAURE, Charles de: Nouveau voyage, La Haye, 1724.

– LE BRUYN, Corneille: Voyage de Corneille Le Bruyn, Paris, 1725.

– ARVIEUX, Laurent d': Mémoires du Chevalier Laurent d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roi à la Porte, consul d'Alep (1635-1685), mis en ordre par le P. Labat, 6 vol., Paris, 1735.

– GREEN, John: A journey from Aleppo to Damascus. Added an account of the Maronites inhabiting Mount Lebanon, London, 1735.

– TOLLOT: Nouveau voyage fait au Levant.., Paris, 1742.

– SHAW, Thomas: Voyages de Mr. Shaw M.D. dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant.., 2 vol., La Haye, 1743. (Oxford, 1738).

– PERRY, Charles: A view of the Levant.., London, 1743.

– KORTE, Jonas: Reise van Jonas Korte naar Palestina, Egypte, Phenicie, Syrie.., 2 vol Halle, 1743.

– NAU, P.: Voyages nouveaux de la Terre Sainte, Paris, 1756.

– ANON: Travels through Egypt, Turkey, Syria and the Holy Land.. by an English merchant, London, 1758.

– EGMONT, J. VAN: Travels through parts of Europe.. Asia. Syria.., transl. from the Dutch, 3 vol., London, 1759.

– HASSELQUIST, F.: Voyage dans le Levant dans les années 1749-1752, Paris, 1769.

– POCOCKE, Richard: Voyage en Orient de Richard Pococke.., 6 vol., Paris, 1772. (London, 1743).

– NIEBUHR, Carsten: Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins, 2 vol., Amsterdam, Utrecht, 1780. (Copenhague, 1774).

– TOTT, Baron de: Mémoires sur les Turcs et les Tartares, 4 vol., Amsterdam, 1784.

– PAGES, M. de: Voyage autour du monde.., 2 vol., Paris, 1784.
– BINOS, Abbé de: Voyage par l'Italie en Egypte, au Mont Liban et en Palestine.., 2 vol., Paris, 1787.
– VOLNEY: Voyage en Egypte et en Syrie, 2 vol., Paris, 1787.
– FERRIERES-SAUVEVOEUF: Mémoires historiques, politiques et géographiques du comte F-S..., 2 vol., Paris, 1790:
– CASSAS, Louis: Voyage pittoresque de la Syrie, de Phénicie, de la Palestine et de la Basse-Egypte, 2 vol., Paris, 1799.
– BROWNE, William-Georges Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie, la Dar-Four.., trad. de l'anglais par J. Castéra, 2 vol., Paris, 1800. (London, 1799).